

هكذا تصنع القوانين...

د. فلاح نجم عبدالله العاني

مسؤول الإعجاز العلمي في ديوان الوقف السني وأستاذ في كلية الإمام الأعظم

سيدنا عمر بن الخطاب رضي الله عنه المعروف بشدته وقوة بأسه، كان يُعدُّ موائد الطعام للناس في المدينة ذات يوم، فرأى رجلاً يأكل بشماله، فجاءه من خلفه، وقال: يا عبدالله: كل بيمينك. فأجابه الرجل: يا عبد الله إنها مشغولة. فكرر عمر القول مرتين فأجابه الرجل بنفس الإجابة. فقال له عمر: وما شغلها؟ فأجابه الرجل: أصيبت يوم مؤتة فعجزت عن الحركة. فجلس إليه عمر وبكى وهو يسأله: من يوضؤك؟ ومن يغسل لك ثيابك؟ ومن يغسل لك رأسك؟ ومن.. ومن.. ومن..؟ ومع كل سؤال ينهمر دمه.. ثم أمر له بخادم وراحلة وطعام وهو يرجوه العفو عنه لأنه آلمه بملاحظته على أمر لم يكن يعرف أنه لا حيلة له فيها. هكذا تصنع القوانين.

كان رضي الله عنه يخرج ليلاً في شوارع المدينة وأزقة الحواري لا ليتلصص على رعيته ولكن ليتفقد حالها.. وذات مساء إذ بأعرابية تناجي زوجها الغائب وتنشد في ذكره شعراً:

لقد طال هذا الليل واسود جانبه
وأرقني إذ لا حبيب أأعبه
فلولا الذي فوق السماوات عرشه
لزرع من هذا السرير جوانبه

فيقترب أمير المؤمنين ويسترق السمع ثم يسألها من خلف الدار: ما بك يا أختاه؟ فترد الأعرابية: لقد ذهب زوجي إلى ساحات القتال منذ أشهر وإني أشواق إليه. فيرجع أمير المؤمنين إلى دار ابنته حفصة رضي الله عنها ويسألها: كم تشتاق المرأة إلى زوجها؟ وتستحيي الابنة وتخض رأسها فيخاطبها متوسلاً: إن الله لا يستحي من الحق ولولا أنه شيء أريد أن أنظر به في أمر الرعية لما سألتك. فتجيب الابنة: أربعة أشهر أو خمسة أو ستة. ويعود الفاروق إلى داره ويكتب لأمراء الأجناد (لا تحبسوا الجيوش فوق أربعة أشهر). ويصبح الأمر قانوناً يحفظ للمرأة أهم حقوقها.

لقد تابع مسار القانون الذي لم يصغه الجهاز التنفيذي للدولة بل صاغه المجتمع (الأعرابية وحفصة) واعتمده الجهاز التنفيذي للدولة لينظم به المجتمع. وهكذا تشكّل (قانون المرأة).

ويواصل الفاروق رضي الله عنه التجوال المسائي متفقداً وليس متلصصاً وإذ بطفل يُصدر أنيناً حزيناً فيقترب من الدار ويسأل عما به؟ فترد أم الطفلة: (إنني أفطمه يا أمير المؤمنين).

حدث طبيعي أم تفتطم طفلها ولذا يصرخ ولكن أمير المؤمنين لا يمضي في حال سبيله؛ بل يحاور أم الطفل ويكتشف أن الأم فطمت طفلها قبل موعد الفطام لحاجتها لمائة درهم كان يصرفها بيت مال المسلمين لكل طفل بعد الفطام .

يرجع الفاروق رضي الله عنه إلى منزله لا لينام إذ أنين ذاك الطفل لم يبارح عقله وقلبه فيصدر أمراً (بصرف المائة درهم للطفل منذ الولادة وليس بعد الفطام) . ويصبح الأمر قانوناً يحفظ حقوق الأطفال ويحميهم من مخاطر الفطام المبكر . ولو لم يحاور الفاروق تلك المرأة لما أصدر قانوناً يحمي حق الطفل في الرضاعة الكاملة . وهكذا تشكّل (قانون الطفل) .

وكان الفاروق رضي الله عنه يحب أخاه زيداً، وكان زيد هذا قد قُتل في حروب الردة . وذات نهار بسوق المدينة يلتقي الفاروق وجهاً بوجه بقاتل زيد وكان قد أسلم وصار فرداً في رعيته . يخاطبه الفاروق غاضباً : (والله إنني لا أحبك حتى تحب الأرض الدم المسفوح)؛ فيسأله الإعرابي متوجساً : (وهل سينقص ذلك من حقوقي يا أمير المؤمنين)، ويُطمئنه أمير المؤمنين (لا)؛ فيغادره الأعرابي بمنتهى اللامبالاة قائلاً : (إنما تأسى على الحب النساء) . أي مالي أنا وحبك إذ ليس بيني وبينك غير (الحقوق والواجب) .

لم يغضب أمير المؤمنين ولم يزوج به في السجن بل كظم غضبه على جرأة الأعرابي وسخريته وواصل التجوال .

لم يفعل ذلك إلا إيماناً بحق هذا الأعرابي في التعبير وبكظم الغضب وهو في قمة السلطة وبفضل شجاعة هذا الأعرابي . تشكّل في المجتمع (قانون حرية التعبير) .

ثم المرأة التي جردته ذات جمعة من لقب أمير المؤمنين حين قالت (أخطأت يا عمر)، وكانت هذه بمثابة نقطة نظام؛ فامرأة من عامة الناس ترفض قانون المهر الذي صاغه الفاروق عمر . لم يكابر أمير المؤمنين ولم يزوج بالمرأة في السجن ولم يأمر بجلدها بل اعترف بالخطأ بالنص الصريح (أصابت امرأة وأخطأ عمر)، ثم سحب قانونه وترك للمجتمع أمر تحديد المهور حسب الاستطاعة .

هكذا تُصنع القوانين، حسب غايات المجتمع وطموحاته وثقافته وذلك بالغوص في قاع المجتمع المستهدف بتلك القوانين؛ فالمجتمع هو مصدر القوانين وليس السلطة (بما لا يخالف كتاب الله وسنة نبيه صلى الله عليه وسلم طبعاً) .

لم يتغير الناس ولا الحياة ..

ولكن ليس في القوم .. (عمر) .. رضي الله عنه !!

لقد أتعبت من جاء بعدك يا عمر يا ابن الخطاب رضي الله عنك وأرضاك ..